3 - منزلة العلماء (3)

خطورة تنقص العلماء (أ)

1416/7/23هـ

إنَّ الحَمْدَ للهِ...

مَعَاشِرَ المُسلِمينَ:

تَقَدَّمَ فِي جُمُعَتَينِ مَاضِيَتَينِ ذِكرُ شَيءٍ مِن خِصالِ العُلَماءِ التي تُبَيِّنُ فَضلَهُم وَمكانَتَهم، وَما يَجِبُ لَهم عَلى غَيرِهِم مِن تَوقِيرِهِم وَمَعرِفَةِ حَقِّهِم وَفَضلِهِم.

وبَعدَ ذلكَ يُقالُ: إنَّ مِن لَوازِمِ تِلكَ الخِصالِ: الحذرَ مِن تَقليلِ شَأنِها، أَو تَهوينِ أَمرِ مَنِ اتَّصَفَ بِها.

إذا كانَ ذلكَ كَذلكَ، فَالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنَ الجُرأَةِ بِاللِّسانِ وَالبَنانِ عَلى صَفحةِ العُلَماءِ، ومُحاولةِ تَشويهِ سُمعَتِهِم أَو تَوزيعِ التُّهَمِ عَلَيهِم؛ فَإِنَّ ذلكَ يَفتَحُ بَاباً مِنَ الشَرِّ عَظيماً؛ لِما يَجُرُّهُ مِنَ الفَسادِ وَالإِفسادِ الحِسِّيِّ وَالمَعنَوِيِّ، لاَ إلى قائِلِهِ فَحَسبُ، بَل إلى المُجتَمَعِ كُلِّهِ.

ولِبيانِ خُطورةِ هَذا الأَمرِ يُقالُ:

إنَّ إهانةَ العُلَماءِ أَو ازْدِراءَهُم أَو تَنَقُّصَهُم أَوِ الاستِخفافَ بِهِم، أَعظَمُ جُرماً وَأَشَدُّ إثماً مِن إهانةِ وَازدِراءِ غَيرِهِم؛ ذلكَ لأَنَّ إهانةَ العُلَماءِ لَيسَت إهانةً لِذَواتِهِم فَحَسبُ، بَل تتعَدَّى ذَلكَ إلى إهانةِ مَا يَحمِلونَهُ مِنَ العِلمِ، وَما يتَمَثَّلون بِهِ مِنَ الدِّينِ والخُلُقِ. وَلِذا يُخشَى عَلى مَن أَهانَ أَهلَ العِلمِ مِن حُلولِ العُقوبةِ المُعَجَّلَةِ بِهِ؛ لِشَناعَةِ جُرمِهِ وَعَظيمِ جِنايَتِهِ.

وَأَسُوقُ عَلى مَسامِعِكم شَيئاً مِنَ النُّصوصِ فِي هَذا الشَّأنِ، يَتَبَيَّنُ مِن خِلالِها مَدى الخُطورةِ التي تَترَتَّبُ عَلى بَخسِ العُلَماءِ حَقَّهُم، وكَذلِكَ بَيانُ حالِ مَن استَخَفَّ بِالعُلَماءِ، وكَونُهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ يُوشِكُ أَن يَنهارَ بِهِ، إن لَم يَتُبْ إلى اللهِ تَعَالَى مِن جُرمِهِ ودَنبِهِ.

- فَمِن ذلكَ:

- أَولاً: أَنَّ مَن عَادَى العُلَماءَ فَهو مُعادٍ للهِ وَقد آذَنَهُ اللهُ بِالحَرْبِ، قَالَ ﷺ فِيما يَرويهِ عَن رَبِّهِ تَبارَكَ وتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «مَن عَادَى لِي وَلِيّاً فَقد آذَنتُهُ بِالحَرْبِ» أَخرَجَهُ البُخارِيُّ[1].

([1]) رواه البخاري (6502).

قَالَ الحافِظُ ابنُ حَجَرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (المُرادُ بِوليِّ اللهِ: العَالِمُ بِاللهِ المُواظِبُ عَلى طاعَتِهِ).

وَقالَ أَيضاً: (لاَ يُحكَمُ لإِنسانٍ آذى وَلِيّاً ثُمَّ لَم يُعاجَلْ بِمُصِيبةٍ فِي نَفسِهِ أَو مَالِهِ أَو وَلَدِهِ بِأَنَّهُ سَلِمَ مِن انتِقامِ أللهِ لَهُ، فَقَد تَكونُ مُصيبَتُهُ فِي غَيرِ ذَلكَ مِمَّا هُو أَشَدُّ عَلَيهِ، كَالمُصيبةِ فِي الدِّينِ مَثلاً).

– ثانياً: أَنَّ مَن أَهانَ العُلَماءَ فَقد عَرَّضَ نَفسَهُ لِوَعيدِ النَّبِيِّ ﷺ المُتَمَثِّلِ فِي قَولِهِ: « لَيسَ مِنَّا مَن لَم يُجِلَّ كَبِيرَنا، ويَرحمْ صَغيرَنا، وَيَعرِفْ لِعالِمِنا حَقَّهُ » رَواهُ الإِمامُ أَحمدُ وَالحاكِمُ عَن عُبادَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه[1].

– ثالِثاً: أَنَّ تَنقُّصَهُم وَالاستِهزاءَ بِهِم قَد يَسلُكُ بِصاحِبِهِ طَريقاً مِن طُرُقِ الكُفرِ، كَما قَالَ تَعَالَى: {قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ } وَقَد نَزَلَت فِيمن استَهزَأَ بِقُرَّاءِ الصَّحابَةِ أَي: فُقَهاؤُهُم وعُلَماؤُهُم.

– رَابِعاً: أَنَّ مَنِ اغتَابَهُم أَو رَضِيَ بِغَيبَتِهِم فَهُو مُعَرَّضٌ لِمَوتِ القَلبِ، قَالَ ابنُ عَساكِرَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (اعلَم –وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَرضاتِهِ، وَجَعَلَنِي وإِياكَ مِمَّن يَتقيهِ حَقَّ تُقاتِهِ– أَنَّ لُحومَ العُلَماءِ مَسمومةٌ، وعَادةَ اللهِ فِي هَتكِ أَستارِ مُتَنَقِّصِيهِم مَعلومةٌ، وَقَلَّ مَنِ اشتَغَلَ فِي العُلَماءِ بِالثَّلْبِ إِلاَّ عُوقِبَ قَبلَ مَوتِهِ بِمَوتِ القَلبِ، {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}).

وَعَن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه قَالَ: (مَنِ استَخَفَّ بِالعُلَماءِ ذَهَبت آخِرَتُهُ).

– خامِساً: أَنَّ المُجتَمَعَ الذي يُهانُ فِيه العُلَماءُ مُجتَمَعٌ مُتداعٍ للتَّصَدُّعِ والفَوضَى، كَيفَ لاَ؟ وَالعُلَماءُ نُورٌ لِلنَّاسِ، بِهِم يَقتدُونَ، وَعن رأيهِم يَصدُرونَ، فَهُم لِلناسِ كَالشَّمسِ فِي النَّهارِ، وكالعافِيةِ للبَدَنِ.

وَلقَد أَحسَنَ القَائِلُ فِي وَصفِ عَبدِاللهِ بنِ المُبارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى عِندَ خُروجِهِ مِن بَلدةِ مَروٍ:

إِذَا سَارَ عَبدُاللهِ مِن مَروَ لَيلةً فَقَدْ سَارَ مِنهَا نَجْمُها وَهِلالُها

فَأَيُّ خَيرٍ يُرجَى فِي أُناسٍ أَو مُجتَمعٍ لاَ يُرفَعُ لِلعالِمِ عِندَهُم رأسٌ، بَل ويُعَظَّمُ فِيه أَهلُ الشَّرِّ؟ وَما أحسَنَ قَولَ القائِلِ:

وَلاَ خَيْرَ فِي قَومٍ يُذَلُّ كِرَامُهُمْ يَعظُمُ فِيهِم نَذلُهُمْ ويَسُودُ

([1]) رواه أحمد في «مسنده» (2329) (6937) والحاكم (211/1).

- سادِساً: أَنَّ فِي تَنَقُّصِ العُلَماءِ وَالاستِخفافِ بِحَقِّهِم قَدحاً فِي مُعتَقَدِ ذَلكَ المُتنقِّص، وَهَذا مَزَلَّةُ قَدَمٍ.

قَالَ الإِمامُ الطَّحاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي عَقيدَتِهِ التي صَنَّفَها: (وَعُلَماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ ومَن بَعدَهُم مِنَ التَّابِعينَ: أهلِ الخَيرِ وَالأثَرِ؛ وَأهلِ الفِقهِ والنَّظَرِ، لاَ يُذكَرونَ إِلاَّ بِالجَميلِ، ومَن ذَكَرَهُم بِسُوءٍ فَهُو عَلى غَيرِ السَّبِيلِ).

- سابِعاً: أَنَّ فِي إِهانَةِ العُلَماءِ وَإِسقاطِ حَقِّهِم وكَرامَتِهِم، تَنفيذاً وتَحقيقاً لِما تَسعى إِليهِ يَهودُ - قَبَّحَها اللهُ - فَقد جَعَلت يَهودُ طَمسَ هَويَّةِ العُلَماءِ ومَسخَ مَكانَتِهِم مِن أَهَمِّ أَهدافِها التي تَسعَى إِلى تَحقيقِها، وهَذا مِن سُوءِ نَظَرِهِم وخُبثِ مَقصدِهِم؛ إِذ إِنَّهُم يَعلمونَ أَنَّ فِي تَشويهِ صُورةِ العُلَماءِ مَغنَماً كَبيراً لِتحقيقِ مَآربِهِم، فَإِذا استخفَّ النَّاسُ بِعُلَمائِهِم فَحَدِّث عَنِ الفَوضَى وَلاَ حَرَج، وَحَدِّث عَن فَسادِ الأَخلاقِ وَلا حَرَج، وَحَدِّث عَن فُشُوِّ المُنكَراتِ وَلا حَرَج.

جَاءَ فِي بعضِ بُنُودِ مُخَطَّطاتِ اليهودِ ما نَصُّهُ:

(وَقد عُنِينا عِنايةً عَظيمةً بِالحَطِّ مِن كَرامةِ رِجالِ الدِّينِ [ويعنُونَ بِرجالِ الدِّينِ: العُلَماءَ مِن غَيرِ اليَهودِ] فِي أَعيُنِ النَّاسِ، وَبِذلِكَ نَجَحنا فِي الإِضرارِ بِرسالَتِهِم التِي كانَ يُمكنُ أَن تَكونَ عَقَبَةً كَؤُوداً فِي طَريقِنا، وإِنَّ نُفودَ رِجالِ الدِّينِ عَلى النَّاسِ لَيَتَضاءَلُ يَوماً فَيوماً).

هَكذا قَالُوا وأَرادُوا، فَلَقَد أَدرَكَ اليهودُ وَأَذنابُهُم مَدى ثِقَةِ المُسلِمِينَ بِعُلَمائِهِم، وتَرَسُّخِ تِلكَ الثِّقَةِ فِي سُوَيداءِ قُلوبِ المُسلِمينَ: (فَشَنُّوا حَملةً مَسعُورةً مُستَتِرةً، استَعمَلَت كُلَّ أَفانينِ الدِّعايةِ وَالإِشاعةِ، وَأَساليبِ عِلمِ النَّفسِ والاجتماعِ؛ لِتشويهِ سُمعَةِ عُلماءِ الأُمَّةِ؛ حَتَّى تَكرَهَهُم الأُمَّةُ، وتَرفُضَ -مِن ثَمَّ- الائتِمارَ بِأَمرِهِم أَو التَأَثُّرَ بِعِلمِهِم.

وقَد تَكاتَفَت جُهودُ الصَّليبِيَّةِ واليهودِيَّةِ ومَن تَبِعَها للإِجهازِ عَلى سُمعَةِ العُلَماءِ، وعَلى مَرِّ السِّنينَ وتَقادُمِ العَهدِ، آتت هَذِهِ الجُهودُ أُكُلَها، وجَنَت ثِمارَها، فَأَقامَت أُمَّةُ الإِسلامِ عَلى شَريحةٍ مِن أَبناءِ جِلدَتِها صُنِعَت عَلى أَعيُنِ أَعداءِ الإِسلامِ، فَنظَرت تِلكَ الشِّرذِمَةُ إِلى العُلَماءِ نَظرةَ النَّاقِدِ الحاقِدِ، فَسَخَّرُوا أَقلامَهُم، وشَمَّرُوا عَن سَواعِدِهِم، وَاتَّهَمُوا العُلَماءَ بِأَنَّهُم قَومٌ رَجعِيُّونَ جَامِدونَ مُتَخَلِّفُونَ، فَإِلى اللهِ المُشتَكَى)[1].

---

[1]) بتصرف من رسالة «المشايخ والاستعمار» تأليف: حسني شيخ عثمان.

فَانظُروا -رَعاكُمُ اللهُ- كَيفَ تَمَّ لِليَهودِ وَأَعوانِهِم مَا أَرادُوا؟ وَإِنَّ مِمَّا يُؤكِّدُ ذلكَ: مَا يُرى ويُقرَأُ ويُسمَعُ فِي وَسائِلِ الإِعلامِ العالَمِيَّةِ المُختَلِفةِ مِن إِظهارِ العَالِمِ بِمَظهَرِ الرَّجُلِ السَّاذِجِ المُغَفَّلِ، فَتارةً يُظهِرونَ العَالِمَ بِصورةِ الرَّجُلِ الذِي يَلبسُ مَلابِسَ تَدعُو إِلى الازدِراءِ وَالنَّقْدِ.

(وتَارَةً يُظْهِرونَ العالِمَ بِصورةِ الرَّجُلِ الذِي يَتَشدَّقُ فِي كَلامِهِ؛ ويَتَنَطَّعُ فِي إِخراجِ الحُروفِ بِصورةٍ تَدعُو لِلاستِهجانِ والسُّخرِيةِ؛ لِيَجمَعُوا بَينَ إِسقَاطِ سُمعةِ العُلَماءِ، وَتَنفِيرِ النَّاسِ مِنَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وَمِمَّا ذَكَرَهُ التَّاريخُ: أَنَّ الاستِعمارَ قَد أَبرَزَ هَذِهِ الصُّورةَ -أَعني تَشويهَ صُورةِ العُلَماءِ- بِشَكلٍ يَدُلُّ عَلى مَبلَغِ اهتِمامِهِم وحِرصِهِم عَلى إِسقاطِ سُمعَةِ العُلَماءِ، وشَواهِدُ ذلكَ كَثيرةٌ:

وَمِنها: أَنَّ الاستِعمارَ قَامَ فِي بَعضِ مُستَعمَراتِهِ التِي لِلعالِمِ فِيها رَأسٌ مَرفُوعٌ، قَامَ بِإِخراجِ جَماعةٍ مِنَ النَّاسِ تَطوفُ فِي الأَسواقِ وَالقُرى خَلْفَ رَجُلٍ يَركَبُ حِماراً وَيَلبَسُ عِمامةً، وَقَد جَعلَ ظَهرَهُ إِلى وَجهِ الحِمارِ، ووَجهَهُ إِلى النَّاسِ، وهُو يَقومُ بِحَرَكاتٍ هَزلِيَّةٍ وَيُنادِي عَلى نَفسِهِ بِأَنَّهُ الشَّيخُ فُلان! كُلُّ ذَلكَ بِقَصْدِ تَشوِيهِ صُورةِ العُلَماءِ فِي نُفوسِ النَّاسِ، وَبِخاصةٍ المُحِبِّينَ لَهُم)[1].

اللَّهُمَّ احفَظِ للعُلَماءِ مَكانَتَهُم وشَأنَهُم...

---

[1]) بتصرف من المرجع السابق.

الخطبة الثانية

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. مَالِكِ يَومِ الدِّينِ. الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلى عَبدِهِ الكِتَابَ وَلَم يَجعَل لَهُ عِوَجاً.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

والعَجَبُ أَنَّ رَميَ العُلَماءِ بالجَهْلِ وازدراءَهُم قَضيةٌ لَيست وَليدَةَ هذا العَهدِ، بَل أُصولُها ضاربةٌ فِي أولِ عُهودِ الإسلامِ، وكانَ مِمَّنْ تَبوأ إثمَها وبَاءَ بِوَبالِها: شَراذِمُ المُبتَدِعَةِ عَلى اختلافِ مَشارِبِهم.

فَقَد ذَكَرَ الإمامُ الشَّاطِبِيُّ فِي الاعتِصَامِ: (أَنَّ المُعتَزِلِيَّ وَاصِلَ بنَ عَطاءٍ تَكَلَّمَ يَوماً، وعِندَهُ عَمرو بنُ عُبيدٍ، فَقَالَ عَمرو بنُ عُبيدٍ:

أَلاَ تَسمَعونَ؟ مَا كَلامُ الحسنِ وابنِ سِيرينَ عِندَما تَسمعون إلاَّ خِرقَةُ حَيضٍ مُلقَاةٌ.

وَرُوِيَ أَنَّ زَعيماً مِن زُعَماءِ أَهلِ البِدعَةِ كَانَ يُريدُ تَفضيلَ عِلمِ الكَلامِ عَلى الفِقهِ، فَكانَ يَقُولُ: إِنَّ عِلمَ الشَّافِعِيِّ وأَبي حَنيفةَ جُملَتُهُ لاَ يَخرجُ مِن سَراويلِ امرأةٍ!

هَذا كَلامُ هَؤلاءِ الزَّائغينَ!! قَاتَلَهُمُ اللهُ) انتَهى كَلامُ الشَّاطِبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ.

قَالَ الشيخُ ابنُ جِبرينَ -أَثابَهُ اللهُ تَعَالَى- مُعَلِّقاً عَلى كَلامِ أُولئكَ المُبتَدِعةِ: (وَهذا القَولُ كُفرٌ والعِياذُ بِاللهِ؛ لأَنَّ الحَسَنَ وابنَ سيرينَ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى لَم يَقولا هَذا الكَلامَ مِن أَنفُسِهِما، بَل هِي نُصوصُ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ، وَقَد يكونُ فِي أقوالِهِما اجْتِهادٌ، لَكِنَّ عُمدَتَهُما الكِتابُ وَالسُّنَّةُ) انتَهى كَلامُهُ أَثابَهُ اللهُ[1].

وَلاَ يَزالُ أَهلُ الضَّلاَلِ يَكيدونَ لِلعلماءِ؛ بُغْيَةَ الحَطِّ مِن سُمعَتِهِم وكَرامَتِهِم، وتَتَنوَّعُ أَساليبُهُم بِحَسَبِ البيئةِ التي يَعيشونَ فِيها، والمَظَلَّةِ التي يَستَظِلُّونَ بِها، فَللمعتَزِلةِ أَذنابٌ، وَلِلخوارجِ أَفراخٌ، وكَذا لِغَيرِهِم مِمَّن جَانبَ طَريقَ الهِدايةِ وسَلَكَ طُرُقَ الغَوايةِ، يَتَّبِعُونَهُم حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، وَحَذوَ النَّعْلِ بِالنَّعلِ، شِبراً بِشِبرٍ، وَذِراعاً بِذِراعٍ، حَتَّى لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلوهُ تَبعاً.

وَكَيدُ أُولئِكَ للعُلَماءِ لَيس أَمراً غَريباً وَمُستَنكَراً مِنهم، بَل ذلكَ مِن صَميمِ مَبدَئِهم ومَذهَبِهِم، لَكِنِ الذي يَندَى لَهُ الجَبينُ، وتَدمَعُ لَهُ العَينُ، أَن تُشَمَّ رائِحَةَ ازدِراءِ العُلَماءِ وتَنَقُّصِهِم فِي مُجتَمَعاتٍ شَبَّ وشَابَ أَهلُها عَلى تَوقيرِ العُلَماءِ وَاحتِرامِهِم، وكانَ ذلكَ مِنَ الأُمورِ المُسَلَّمَةِ عِندَهُم، ومِنَ الثَّوابِتِ التي لاَ يَخطُرُ بِبالِهِم التَنازُلُ عَنها قَيدَ أُنمُلَةٍ.

---

[1] في أثناء شرحه لكتاب «الاعتصام».

فَلَقَد تَعارَفَ النَّاسُ فِي هذا المُجتَمَعِ عَلى تَوقيرِ العُلَماءِ والاعتِرافِ بِفَضلِهِم ومَنزِلَتِهِم، فَسُمعَتُهُم الطَّيِّبَةُ عَلى الأَلسُنِ مَذكورةٌ، وهَيبَتُهُم فِي صُدورِ النَّاسِ مَحفوظَةٌ، ولَم يَخطُر بِبالِ أَحَدٍ مِنهُم أَن يَتَنازَلَ عَن تلكَ المَنزِلةِ، لكنَّ الشَّيطانَ لاَ يَهدَأُ لَهُ بالٌ، ولاَ يَستَقِرُّ لَهُ قَرارٌ، فَلَبَّسَ عَلى بعضِ النَّاسِ وَأَوحَى إِليهِم مِن زَخارِفِ القَوْلِ، فَبَدأَ بعضُهُم يُناقِشُ فِي إِعطاءِ العُلَماءِ تلكَ المَنزِلَةِ، ومِن ثَمَّ بَدأُوا بِالجُرأةِ عَلى مَقامِهِم أو مَقامِ بَعضِهِم، كُلُّ ذلكَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ، حَتَّى إِذا خَلَعُوا جِلبَابَ الحَياءِ، وبَدَأُوا يُصَرِّحونَ بِانتِقاصِهِم وانتِقاصِ بَعضِهِم، حَتَّى وصَفُوا بعضَ العُلَماءِ بِأوصافٍ أُنَزِّهُ لِسانِي وأَسماعَكُم عَنها، فَإِلى اللهِ المُشتَكَى، وحَسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ، وإِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيهِ راجِعُونَ.

ولِلحَديثِ بَقيّةٌ فِي الجُمُعَةِ القادِمَةِ إِن شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسأَلُكَ بِأَسمائِكَ الحُسنَى وبِصِفاتِكَ العُلى أَن تَحفَظَ مَشايخَ السُّنَّةِ، وَأَن تُعلِيَ دَرَجَتَهُم وتَرفَعَ مَكانَتَهُم، اللَّهُمَّ مَن أَرادَ بِمَشايخِ السُّنَّةِ سُوءاً فَأَشغِلْهُ بِنَفسِهِ واجعَل كَيدَهُ فِي نَحرِهِ.

اللَّهُمَّ وَفِّق وُلاةَ أُمورِنا، اللَّهُمَّ اجعَلْهُم مِن مَفاتِيحِ الخَيرِ وَمِن مَغالِيقِ الشَّرِّ، اللَّهُمَّ ارزُقْهُم البِطانَةَ الصَّالِحَةَ النَّاصِحَةَ...